
رؤية حول مفهوم التواصل اللغوي*

أ.د. حمدي إبراهيم حسن

أستاذ برنامج اللغات الحديثة والترجمة - كلية اللغات والترجمة - جامعة الملك سعود

-
- أود أن أتوجه بالشكر إلى مركز بحوث كلية اللغات والترجمة وعمادة البحث العلمي، جامعة الملك سعود على الدعم المالي لهذا البحث.

خلاصة البحث

بعد تجربة دامت لأكثر من عشرين عاماً، قضيت معظمها بحثاً في قضايا اللغة التي تبدو لأول وهلة متعددة المدارس والنحل، وما صاحب ذلك من آراء واتجاهات، اتفقت معها أحياناً، واختلفت أحياناً أخرى، وجدت نفسي أكثر اصراراً وعزماً من ذي قبل على التواصل مع هذه الآراء، وما أفرزته لنا من قضايا وإشكالات برزت في العقود الأخيرة، ولا تزال محل بحث، تتناولها أياد وعقول المهتمين بهذا المجال. من بين هذه القضايا التي تصدر اهتمامات كثير غيري، قضية التواصل اللغوي التي غدت حديث جل المهتمين بتعليم اللغات الأجنبية، وتعلمها في العقود الأخيرة، إلى جانب التربويين القائمين على إعداد المناهج الدراسية داخل بلدانهم.

فالاهتمام بظاهرة التواصل لم يكن عبئاً لا ترجى نتائجه، بل فرضته حتمية التفاعل المعرفي مع الآخر، في عالم تقاربت أطرافه المترامية، ومن ثم بات علينا نحن الدارسين طرق أبوابه، بوصفه أساساً من أساسيات اللغة التي هي جل اهتمامنا، ننفذ بها إلى دروب الثقافات الأخرى في ظل التقدم الذي أضحى سمة بارزة من سمات العصر الذي نعيش فيه و نتعايش مع مجتمعاته، بعد أن حط رحاله في العقدين الأخيرين ضيفاً علينا، أخذاً موقعاً في حياتنا اليومية والعملية لا يمكن السكوت حياله، أو حتى غض الطرف عنه.

تلك المنطلقات من شأنها الدفع بنا نحو التزود بأدوات هذا التقدم التي تأتي اللغة في صدارتها، لتسير بنا قدماً وبخطى ثابتة نحو مصادره، نطلع عليها، نفيد من تجاربه، نأخذ ما ينفعنا، نزود مداركنا، نتواصل معه في شتى مناحيه العلمية والاجتماعية والثقافية وغيرها. ولا أرى بدأً من تحقيق هذا المطمح إلا بتضافر جهودنا نحن الباحثين مع مؤسساتنا التعليمية نحو مزيد من إتقان دارسينا للغة الهدف، وحثهم على الاستزادة، بغية التفاعل مع ثقافات الشعوب الأخرى، نأخذ منها، ونعطي لها، نعرفهم ويعرفوننا، نتواصل معهم ويتواصلون معنا، لنحقق أهداف مؤسساتنا ومجتمعاتنا في مجال تعليم اللغات الأجنبية وتعلمها.

وموضوع البحث الذي اخترت له عنوان: رؤية حول مفهوم التواصل اللغوي، لا تقف عند النظرة العامة وما يكتنفها من بديهيات لا تستحق منا التأكيد على براهينها وكفى، بل إن الأمر جد مختلف في ظل غموض مفاهيمه وتشابكها، إلى جانب وصفه وتحليله، حيث تستلزم علوم أخرى تسهم في نجاح عملية التواصل، والتي بدونها لا تتم هذه العملية ويكتب لها الفشل.

اللغة أداة التواصل

لا شك أن التواصل communication الذي تعددت مفاهيمه وتنوعت اتجاهاته في الآونة الأخيرة، ما هو إلا عملية بشرية تدور في فلك اللغة، بدءاً بالفكرة، وانتهاءً بالإبلاغ، هذه اللغة التي تتجلى أهميتها ويتعاضم دورها في حياتنا اليومية، باعتبارها أداة نستقبل ونرسل بها، توسع مداركنا، وتحرك شعورنا، لا تعدو إلا أن تكون إشارات أو أصوات، وربما ملامح وعلامات يفهم معناها.

والحقيقة أن تعدد الآراء حول تعريف اللغة بمفهومها التواصلية التي جاءت جميعها متفقة على مفاهيم وأهداف واحدة، هو مظهر طبيعي في ظل تعدد المدارس التي ينتمي إليها ذوو هذه الآراء. لكن واقع الحال في هذا الشأن يقول بأن المدرسة الأمريكية كانت صاحبة النصيب الأوفر في هذا المجال، حيث الأمريكي إدوارد ساپير Edward Sapir (١٩٨٨ - ١٩٣٩م) هو أول من فطن إلى أن اللغة أداة اجتماعية، غايتها التواصل بين أفراد المجتمع، حين قال: "اللغة هي أداة لتوصيل أفكار و مشاعر، وكذلك رغبات من خلال نظام من الرموز يختاره مجتمع ما". والحال كذلك عند ناعوم تشومسكي N. Chomsky (١٩٢٨م)، حين ذكر: " أن اللغة ما هي إلا فئة محدودة أو غير محدودة من الجمل، يمكن بناؤها من مجموعة محدودة من العناصر.

بهذين المفهومين يؤكد كل من ساپير وتشومسكي أن اللغة في شقها التواصلية مجموعة من الأفكار والمشاعر تصدر عن متحدث أو كاتب، وأن التعبير عنها لا بد له من سياقات، تتطلب من المرسل انتقاءً جيداً لمفردات تساق في جمل، هدفها إبلاغ رسالة ذات مفهوم لها ارتباط وثيق بهذا السياق الذي هو حجر الزاوية في عملية التواصل، شأنه في ذلك، لا يقل أهمية عن اللغة التي

هي النظام المرتب لهذا السياق، حيث تجتمع هذه اللغة على توصيل الأفكار و المشاعر من خلال نظام من الرموز يختاره المجتمع.

وظاهرة التواصل اللغوي وماهيتها، لم تكن ذا أهمية يلتفت إليها قبل عقد السبعينيات من القرن العشرين، حتى قالت ساندرا سافجينيون Sandra Savignon، أستاذ علم اللغة التطبيقي بجامعة فلادلفيا الأمريكية، في أحد مؤلفاتها: إنها عملية مستمرة للتعبير والتفسير وتبادل وجهات النظر، أما فرص هذه العملية فهي غير محدودة، تحكمها نظم مختلفة من الإشارات، والعلامات والرموز التي لا يمكن تصنيفها، أو تعريفها بدقة. كذلك الأمريكي ولكنز Wilkins، أحد رواد هذا المجال، وأستاذ علم اللغة التطبيقي الذي أكد على أن التواصل نتاج للعلاقة بين المعنى الذي ينتقل عبر الأشكال اللغوية للتعبير، وبين الملامح العملية التي يمكن قبولها من كافة المشتركين في هذه العملية.

ولكنز برأيه هذا، يخلص إلى ثلاثة أطر تجمع بين المعنى، والنظام اللغوي، والجوانب الاجتماعية، كما تشير نظريته إلى ضرورة أن يتوفر في المرسل كفاءة محددة لإيصال هذا المعنى مقبولاً ومصاعاً في مفردات منتقاة تتفق مع فكره، وفكر الطرف المستقبل بوصفه وحدة من الوحدات المكونة لبناء المجتمع. وبإمعان النظر في رأي سافجينيون ولكنز يبدو لنا أنهما متفقان على أن اللغة وسيلة إبلاغ يقصدها المتحدث عندما يريد أن يوصل معنى تعبيره أو توضيحي، شريطة أن تحدده المواقف اللغوية الخاصة بكل لغة على حدة.

ولا تختلف المدرسة الإنجليزية التي تمثلها دائرة المعارف البريطانية عن نظائرها الأمريكية من حيث تناولها لمفهوم التواصل اللغوي، حيث ورد في هذه الدائرة أن اللغة التواصلية هي وسيلة أساسية من وسائل التواصل الاجتماعي، وخاصة في التعبير عن الذات وفهم الآخرين، كما أنها وسيلة فعالة و مهمة من وسائل النمو العقلي والمعرفي والانفعالي.

وأخيراً المدرسة الروسية التي رأت أن اللغة نظام من الرموز المتفق عليها تمثل معاني مختلفة، و تسير وفق قواعد معينة. بمعنى أن اللغة عند جماعة الروس ما هي إلا أداء، يحكمه نظام محكم من الرموز، تتلاحم في سياقات ومواقف مختلفة في أغراضها، ومن ثم تقوم اللغة بدورها في سد حاجات المجتمع.

وانطلاقاً من أهمية هذه اللغة، ودورها الفعال في عملية التواصل البشري، الذي بات ضرورة ملحة لدى الباحثين، يتحتم علينا أن نلقي الضوء على ماهيتها التواصلية، والتي ترد على النحو التالي:

أشكال اللغة

للغة نمطان رئيسيان هما محور تناول الباحثين قديمهم و حديثهم، جاء على النحو التالي:

١- اللغة المنطوقة: هي اللغة الأكثر دوراناً بين بني البشر قياساً بغيرها المكتوبة، حيث تتكون من أصوات بسيطة أو حركات أو إيماءات، كإيماء الوجه أو تعبيراته أثناء الحديث، أو غير ذلك، كلغة الأذان، ولغة الحركة و الشم و الانفعالات.

واللغة المنطوقة التي هي عملية فسيولوجية تجري عبر موجات صوتية هوائية، قد تبوأَت دون شك مكاناً غير مسبوق في حياتنا اليومية، نظراً لتعدد الابتكارات العصرية التي تقوم بدور المرسل، والمستقبل، مثل الهاتف، والمذياع، والتلفاز ومكبرات الصوت، وغيرها كثير، مما حدا بهذا النمط اللغوي أن يحل محل اللغة المكتوبة أكثر فأكثر، وفي كثير من المجالات. هذه اللغة التي تتفاعل فيها عدة عوامل نفسية واجتماعية، وتتضافر معاً في آن واحد، يمكن أن تفيد في تحديد المستوى الاجتماعي، والسيكولوجي للمتكلم، إضافة إلى ثقافته، و قدرته

على الأداء، والبلد الذي ينتمي إليه. يقول عالم الاجتماع و اللغوي البريطاني بازيل بانستين Benstein Basil (١٩٢٤-٢٠٠٠م) في هذا الشأن: من خلال اللغة المنطوقة تظهر خصائص المتكلم، و طريقة نطقه، كما تحدد المستويين الاجتماعي و الثقافي، والقطر الجغرافي الذي ينتمي إليه، أياً كان المجال العلمي الذي ينتمي إليه المتحدث. هكذا يؤكد بازيل صاحب نظرية رمز اللغة Theory of Language Code على أن اللغة المنطوقة التي تصدر طواعية عن المتحدث تعد ناقداً معيارياً للحكم عليه نفسياً وثقافياً.

وفن النطق الذي حدده اللغويون في كيفية الأداء Diction، أو القدرة على الأداء، تعد الأصوات اللغوية دعامة الرئيسية، بل قاعدته الأساسية التي ينبغي أن تحتل مكاناً هاماً في مجال التعليم الحديث، لاسيما فرع تعليم اللغات الأجنبية وتعلمها. كما أن الأداء المعياري الصحيح للمتحدث يعد انطلاقة نجاحه، وسبباً مهماً من أسباب التواصل مع الآخر، لأن الشخص ذو الخصائص اللهجية الواضحة، إن أراد تعلم النطق الجيد، فإن هوة الفروق تزداد بين نطقه اللهجي والنطق المعياري المراد، لتصل الصعوبة ذروتها حال رغبته في التواصل الصوتي باللغة الأجنبية التي يدرسها.

ولكي تتم العملية النطقية في صورتها اللغوية الصحيحة، فإنها تقتضي جوانب نفسية و اجتماعية. هذه الجوانب على النحو التالي:

- وجود شخص آخر، حيث الإشارات الحركية، وإيماءات الوجه قابلة للاستخدام بين طرفي الحديث.

- إرسال متواتر مألوف ومستمر.

- يضيف موقف الإرسال معنى اجتماعياً خاصاً يوجه بدوره سلوك القائمين بالإرسال أو التلقي.

رصد المكونات الصوتية التي ترافقها موجة نفسية واجتماعية.

-حاجة الناطق إلى معرفة صوتية واسعة ، ولكن يكفيه قدر معين ، مع التدريب الموجه بالموضوع تحت الإشراف الدقيق.

٢- اللغة المكتوبة: هي الأقل استخداماً في حياتنا اليومية مقارنة بنظيرتها الشفاهية، وهي عبارة عن كلمات أو جمل أو عبارات ذات مدلول، أو معنى متعارف عليه من قبل أفراد، أو جماعات تنتمي إلى نوع واحد، أو مختلف. واللغة المكتوبة يختص بها الجنس البشري دون سواه من الكائنات الأخرى.

وهذا النوع من اللغة تمثله علامات مرئية محددة في رموز ظاهرة ومختلفة، منقولة عن طريق الموجات الضوئية، ومستقبلية عن طريق العين، تعد أحد طرفي الإدراك اللغوي المعرفي، الذي تمثل طرفه الأول اللغة المنطوقة. والحقيقة أن كلا الطريقتين (المنطوقة - المكتوبة) تعتمدان على نفس القواعد والكلمات المعجمية المتوفرة في اللغة، على سبيل المثال، تحتاج اللغة الأدبية إلى مهارة لغوية وشخصية متخصصة، لأنها لغة مكتوبة تتسم بجدية الموضوعات التي يتناولها الكاتب، إضافة إلى مراعاتها للقواعد اللغوية القياسية، صوتية، و صرفية ونحوية، هذه القواعد من شأنها إظهار العلامات بشكل صحيح، من حيث الموقع و المفهوم السياقي، ومن ثم وضوح الدلالات المختلفة دون لبس أو غموض.

ومجمل القول هنا، أن صاحب النص الأدبي المكتوب ينبغي له أن يكون أكثر حذراً، وأن يبتعد عن اللغة المنطوقة قدر استطاعته، لأنها غالباً ما تتصف بالعفوية و التناثر الكلامي، بل والتفكك في كثير من الأحيان. هذا التفكك الأدائي التي تبدو سلبياته نتاجاً لتعدد أطراف الحديث الذي يشاركون فيه، حيث تصل الرسالة اللغوية موضع الإبلاغ إلى أذهان المستمعين بمفاهيم مختلفة، قد تكون مساوية لعدد هؤلاء المشاركين، مما يكون له أثر سلبي على الجانب الأدائي الذي هو نواة العملية الكلامية.

ولأن اللغة في شقيها المنطوق والمكتوب ظاهرة كونية بشرية خصها الله سبحانه وتعالى بالإنسان دون سواه من الكائنات الحية الأخرى، كان لا بد وأن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعقل هذا الكائن وتفكيره، حيث تختزن هذه اللغة في عقله، ثم تتطلق على لسانه في سلسلة من الأصوات التتابعية المسموعة، لتكون مجموعة من الكلمات ذات المعاني المتعارف عليها بين فئة بينها عوامل بيئية شتى، بها يتواصلون، ويحصل بينهم الإفهام والتفاهم، شريطة الالتزام بنظام هذه اللغة. إن اللغة بهذا المفهوم هي عضو فعال في جسد التواصل القائم بين أفراد المجتمع الواحد، ينقلون لبعضهم، ويتناقلون عن بعضهم. وليس هذا التواصل مقصوراً على متحدثي اللغة الواحدة، بل بينهم، وبين الآخرين ممن يتعلمون لغتهم.

كفاية التواصل

المشاركة اللغوية بين طرفين هي أقصى درجات العملية الكلامية التي تبدأ بصوت وتنتهي برسالة، مروراً بالمواقف الاجتماعية والثقافية المصاحبة لهذه العملية، تلك المواقف التي يتبادل فيها الطرفان وجهات النظر فيما بينهما، يتفauضان، ليصلان في نهاية حديثهما إلى غايتهما. ولأننا نؤمن بأن العملية الكلامية التي تتم في سياقات وأنظمة محددة صارمة، هي سمة إنسانية تختص بقدرات ومهارات تفتقر إليها بقية الكائنات الحية الأخرى، فإن هذه القدرات التي تبدأ بعملية نطقية و تنتهي عند المعنى يمثلها جانبان:

أصوات لغوية: هي أصوات بشرية تصدرها مجموعة من الأعضاء البدنية الخاصة بالإنسان، تبدأ بالرئتين وتنتهي بالشففتين، تلك الأعضاء قد اصطلح عليها وراجت باسم أعضاء النطق (Articulation of organs). وهذه الأصوات هي أولى حلقات التواصل بين بني البشر نحو الإفهام والتفاهم المتبادل، حين

تجتمع في رسالة تنتقل من شخص إلى آخر. تلك الصورة الصوتية في رموزها المسموعة هي الأساس الذي انطلقت منه المدارس المعنية بتعليم اللغات الأجنبية، حتى وإن كانت تعلمها في شكل نصوص مكتوبة، لأن النص المكتوب هو في الأساس ترميز للمنطوق.

لقد حاز الصوت اللغوي ولا يزال على اهتمام جل النحويين العرب القدامى، والمحدثين، إضافة إلى الأوروبيين المعاصرين، نظراً لأهميته في عملية الأداء اللغوي عند الفرد المتحدث. (١٠)

وتأتي أهمية هذا الصوت من أهمية نظامه، إذ من المعروف أن لكل صوت لغوي أثره في تحديد المعنى، وإبراز الدلالة، فهو يؤدي دوراً هاماً ووظيفة أساسية في الكلمة، تنظم هذه الوظيفة قواعد اللغة العامة، ونظامها الفونولوجي phonology. ومن ثم لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الصوت اللغوي من جوانبه المادية، بل في قيمته الوظيفية في الكلام، هذه القيمة التي هي غاية الأداء الصوتي، يمكن تحديدها من خلال إجراء المقابلات والاستبدالات بين صوت وآخر قد يشتركان معاً في موضع نطقهما، وقد يختلفان.

نظام لغوي: يعد النظام اللغوي الأكثر تكاملاً من حيث الشكل والمحتوى في مسيرة الأداء اللغوي، إذ يجمع هذا النظام بين الصوت كوحدة صغرى، والكلمة في صيغها التركيبية المختلفة، والجملة التي هي الوحدة الأكبر التي تفضي إلى المعنى المراد. ومن ثم فإن قوام أي نظام لغوي يضم مستويات وأشكال وأنماط مفرداتية ونحوية لها معان متعارف عليها، تجمع هذه المعاني بين خصائص الشخص، والطابع الاجتماعي الذي هو وعاء التواصل والتواصل.

وما نقصده هنا بالشكل، ذلك النظام الصرفي والنحوي الحاكمان لأية لغة منطوقة، أو مكتوبة، إذ لكل لغة خصائصها الصرفية من حيث الاشتقاق والتركيب والتصريف، إضافة لقواعدها الخاصة بقبول الزوائد التي تشارك في

توليد مفردات تلبى حاجة اللغة ومستخدميها. أما النظام النحوي فيسيطر عليه مجموعة من العوامل، منها الترتيب المعياري الداخلي للجملة، والمواقف الاجتماعية والثقافية، والسيكولوجية، إضافة للإشارات والإيماءات والحركات التي تصدر عن المتحدث، وكذلك المتلقي.

بهذا المفهوم، وتلك المقومات التي تجمع بين أصوات لها معان، ونظام صارم من التراكيب والتركيب، ومؤد لهذين النظامين له خصائص شخصية واجتماعية وثقافية محددة، يدفعنا الحديث نحو مدى كفاءة هذا المتحدث على التواصل والتواصل مع الآخر، حيث تعتمد هذه الكفاية التي أسماها ديل هايمز Dell Hymes بالكفاءة التواصلية على قدرة الفرد على الأداء، وتبادل المعنى مع فرد آخر. هذه القدرة تنطبق على اللغة المنطوقة والمكتوبة دون فرق، لأنها محددة بالسياق، كما تتطلب الاختيار المناسب للغة والأسلوب في ضوء الموقف التواصلية.

وكفاءة هايمز التواصلية تختلف في مفهومها عن كفاية تشومسكي اللغوية، إذ على المتحدث ذات الكفاءة التواصلية أن يكون لديه القدرة الكامنة على استعمال اللغة في مواقف اجتماعية وثقافية غير محدودة. كما تهتم هذه الكفاءة بضرورة مناسبة الجمل لهذه المواقف مهما كانت عواملها.

والكفاءة التواصلية الشاملة لكل أنماط العلاقة بين اللغة التي يسوقها المتحدث و ثقافته، وبين لغة الفرد ومجتمعه، لا يمكن لأحداثها أن تنبع من فراغ، بل لا بد لها من أفراد مؤدين لها، وسياقات تبنى فيها، فإن حدث تباين في أي من المجالات بين طرفي عملية التواصل، لاسيما الثقافي منها، انعدمت الكفاءة وأصبح التواصل بلا جدوى.

مفهوم التواصل اللغوي

لا يشك أي منا في أن مبدأ التواصل اللغوي أساسي في جميع مجالاتنا الحياتية، مهما تنوعت مجالاته، أو تفاوتت أدواره، وأن أي فوضى تعتري هذا المبدأ، سوف يتبعها بطبيعة الحال صعوبة في فهم الرسالة، وكيفية أدائها. ولعل هذا الهاجس هو ما يدفع بنا الآن نحو تناول هذه الظاهرة، من أين بدأت، وإلام انتهت؟.

لقد سارع العديد من الباحثين الأمريكيين والأوروبيين في النصف الثاني من القرن العشرين إلى البحث في ماهية هذا التواصل، ودوره في حياة الفرد والمجتمع، وآثاره السلبية والإيجابية المترتبة عليه، وطرائق معالجته، لتأتي محصلة هذه الجهود غير متوقعة في نتائج القيمة، حتى عند هؤلاء الذين اهتموا بهذا المجال، مما حدا بهم إلى إنشاء مراكز علمية تختص بهذا المجال، وأقسام تابعة لها تبحث في كنه التواصل اللغوي الذي بات ركناً أساسياً في مجال تعليم اللغات لغير الناطقين بها، سواء داخل قاعات الدروس، أو عند إعداد مناهج تعليمية لدارسي هذه اللغات. وفي الآونة الأخيرة أصبح علم التواصل اللغوي عاملاً مشتركاً في شتى المجالات البشرية، السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لا يمكن تجاهله، أو الانتقاص من دوره.

والحقيقة أن كثيراً من الباحثين المعاصرين في عالمنا العربي الذين اهتموا بمجال التواصل اللغوي في العقود الأخيرة، لم ينزلقوا خلف من يتشدقون بأصالة الغرب في مجال الدراسات الإنسانية بشكل عام، واللغوية بشكل خاص، وراحوا يفتشون في تراث لغتنا، علمهم يجدون ما يصبون إليه، و كان من حصيلة هذا الجهد العربي الحديث، ما نشرته مجلة آفاق في عددها الثاني والستين تحت عنوان: "اكتساب اللغة عند ابن خلدون" الصادر في شهر أغسطس من عام ٢٠٠٩م للباحث عبد الرحمن العبدان، حيث تفيد هذه المقالة القيمة أن ابن خلدون

في مقدمته التي ألفها عام ١٣٧٧م كان أسبق من تشومسكي وهائيمز وأوستن في مجال التواصل اللغوي، والحال كذلك اكتساب اللغات، سواء الأم منها، أو الأجنبية، وذلك حين قال: إن اللغة هي عبارة المتكلم عن مقصوده، في إشارة صريحة منه إلى عملية التواصل بين المتحدث ومجمعه، هذه العلاقة التي تتنوع وفقاً لهذا المقصود.

كذلك نجد بحثاً أكاديمياً قد تم عام ٢٠٠٤م في إحدى الجامعات اليمينية تحت مسمى: نظرية التواصل اللغوي في الدراسات العربية حتى القرن الخامس الهجري، أثبت فيه صاحبه أن اللغويين العرب كانوا على دراية بأسبقية الأفكار على وسائل الإفصاح، وبينوا العلاقة التي تنشأ بين الفكر واللغة قائمة على ترتيب أولي مركزه العقل؛ وهو ترتيب المعنى، وترتيب آخر هو ترتيب الكلمات بالألفاظ والمعاني، كون ذلك الأمر مرتبطاً بنظرية المعرفة عندهم، وهم بذلك أظهروا صورة أخرى للتواصل، مفادها أن وظائف اللغة أوسع من أن تحصر في وظيفة واحدة أو وظيفتين فأغراضها كثيرة ومعقدة تعقد حاجات الإنسان ومقاصده.

لكن واقع الحال يقول بأن الأوروبيين والأمريكيين، هم أول من فطنوا إلى وضع التواصل اللغوي في أطر وأنظمة معيارية محددة، بل أسسوا -كما أشرنا من قبل- له مدارس ومراكز علمية في شتى أنحاء أوروبا وأمريكا. والآن لا يألون جهداً في لفت أنظار الباحثين والمسؤولين في شتى بقاع العالم إلى أهمية هذا العلم، لاسيما بعد ثورة الاتصالات الهائلة التي ضربت بلدان العالم. و

شاهدنا على ذلك ما نراه من كثرة المؤتمرات والندوات، والمنديات، والمجلات التي تناقش قضايا هذا العلم. إن عكوف الأوروبيين والأمريكيين على تناول قضايا اللغة المختلفة سنوات طوال دامت لأكثر من خمسين عاماً هي النصف الأول من القرن العشرين على تناول قضايا اللغة المختلفة، وظهور فروع عدة يجمعها مسمى علم اللغة، مثل علم اللغة الاجتماعي، والسلوكي، والنفسي، والوظيفي، وآخرها التطبيقي، جميعها دوافع أفرزت لنا علماء اهتموا بالتواصل اللغوي، أمثال: الأمريكي إدوارد سابير E.Sapir صاحب كتاب: Language An Introduction to the Study of Speech، وهذا الكتاب هو نتاج جهود علمية جمعها سابير في سنوات بعد أن طاف فيها عدة جامعات أمريكية، أسهم من خلالها في تأسيس علمي: الإنسان اللغوي، والإنسان النفسي. والسيدة ساندرافاجنون Sandra Savignon أستاذة علم اللغة التطبيقي، وصاحبة العديد من المؤلفات في مجال التواصل اللغوي، وتعليم اللغات الأجنبية، والتي كان آخره كتاب Interpreting Communicative Language Teaching: Contexts and Concerns in Teacher Education. المنشور في عام

٢٠٠٢م.

والملاحظ في مجال التعريف بالتواصل اللغوي، ومجالاته، ما صادفناه من كثرة لهذه التعريفات، حتى بلغت في رأي البعض حد الأربعين، لكنها جاءت متقاربة المضامين والمحتوى، حيث تدور في مجموعها حول انتقال معرفة ما من شخص إلى آخر، بهدف التفاهم بينهما. والحقيقة هنا أننا إذا كنا في موضع اختيار وتفاضل بينها، لوقع على تعريف سافجنون، الذي يعد

أكثر إقناعاً وشمولاً، رغم بساطة مفرداته، تقول: التواصل عملية مستمرة للتعبير والتفسير وتبادل وجهات النظر، وأن فرصه محدودة، تشتمل على نظم مختلفة للإشارات، والعلامات، والرموز التي لا نستطيع الآن البدء في تصنيفها، أو حتى تعريفها بدقة.

هكذا يؤكد التعريف السابق على أن التواصل عملية كلامية تتم في شكل علامات، أو رموز أو إشارات أو تلميحات أو إيماءات، أو غيرها، وأن هذه العملية لا بد لها من نسيج وثيق الترابط مع نظام لغوي دقيق، قوامه التعبير، وتبادل الآراء بين طرفي حديث في مقام ما.

أما ولكنز فيرى أن التواصل تمثله ملامح عملية لا بد وأن يقبل بها كافة المشاركين فيه، يقول: عملية التواصل إنما هي نتاج للعلاقة بين المعنى، بوصفه نتاج يعبر عنه عبر أشكال اللغوية (نطقاً أو كتابة)، وبين الملامح العملية التي يمكن قبولها من كافة المشتركين.

وأخيراً ويدسون Widdowson الذي قال إن التواصل اللغوي لا بد وأن يتم في سياقات عدة دون قيود أو محدوديات،: يتم التواصل حين يحدد مستعمل اللغة موقفاً يتطلب منه نقل معلومات معينة لتحقيق التقارب المعرفي بين الأفراد، ومن ثم يمكن أن يتغير هذا الموقف بشكل أو بآخر، وتلك عملية تتطلب التفاوض أو تبادل وجهات النظر حول المعاني خلال التفاعل بين الأفراد. هذا التفاعل الذي يجب أن يأخذ مكانه لتأكيد قيمة المعنى لما ينطق به المتحدث، وللتحقق من فعاليته كمؤشر لنية المتحدث أو قصده.

هكذا تبدو ملامح التواصل اللغوي جامعة لعوامل اجتماعية وثقافية ونفسية للفرد (المرسل والمستقبل)، ومحددة لقدراته ومهاراته الأدائية على الإبداع، ومحقة لغايات مجتمعه. كما تؤدي هذه العملية حال تحقيق غايتها وظائف بالغة

الأهمية لصالح الفرد نفسه، هذه الغايات التي تناولها هاليداي Halliday، ومقسماً إياها إلى سبعة غايات فردية وجماعية.

كما بدا لنا أن مفهوم التواصل كما ورد آنفاً، لا يمكن له أن يتم، أو يؤدي دوره إلا من خلال عاملين محددين، هذا العاملان هما الحاكمان لنجاح هذه العملية، أحدهما: العامل الذهني (العقلي)، حيث تتكون الأفكار في الذهن، لتؤلف معاً محتوى يقصد به التواصل مع الآخر، من حيث إعلامه، وتغيير اتجاهه، وتنمية قيمه، وغير ذلك من الأهداف التي ترنو إلى إيصال الرسالة. أما ثانيهما، فيمثله العامل الأدائي حيث يتبع هذه الأفكار محتوى يلزمه نظاماً صوتياً كالنبر والتنغيم، وبنية الكلمة و التركيب النحوي. و لا فرق بين العاملين المشار إليهما كون الرسالة شفاهية أو مكتوبة.

مقومات التواصل اللغوي

عندما نرغب في تواصل لغوي ذات قبول اجتماعي يحقق الهدف المرجو، فإن مكونات هذه العملية و مقوماتها تحدد في الأطر التالية:
الرسالة (شفهية - مكتوبة): وهي مجموعة أفكار مرتبة، دقيقة في مفرداتها و عباراتها، بسيطة في تركيبها، صحيحة و سليمة في لغتها المنقول عنها، واضحة المفاهيم والمصطلحات.

الشخص المرسل (مصدر الرسالة): قد يكون هذا الشخص متحدثاً أو كاتباً، لكن لا بد و أن يكون واضح الفكرة ، و لديه خبرة بموضوع الحوار، قادراً على اختيار الألفاظ، و إعادة عرض الأفكار بتفصيل أكثر.

الوسيلة (الأداة): أي الوسيلة التي تنتقل الحديث اللغوي من شخص لآخر، قد تكون هذه الرسالة مباشرة في فضاء طبيعي مشترك بين شخصين أو أكثر (أصوات)، و قد تكون إحدى وسائل التواصل المعروفة لدينا (كتاب، رسوم

توضيحية، أجهزة إعلام، حاسب آلي)، شريطة عدم وجود مؤثرات تشويش، واضحة في كتابتها، جذابة في إخراجها، حسنة في تنسيقها. الشخص المستقبل (المتلقي - القارئ): شخص يستقبل الأصوات، و يرتبها، ويعطيها معنى بناء على الموقف الذي تحدث فيه. و ينبغي أن يكون هذا الشخص سليم الحواس (الأذن والعين)، قادراً على فك رموز الرسالة الموجهة إليه، على دراية بموضوع الرسالة، و ثقافة الشخص المرسل، متحمساً للأفكار الواردة إليه.

انطلاقاً من هذه المحاور الأربعة التي تمثل أسس عملية التواصل بين طرفيها في شتى مواقفها المسموعة والمقروءة، تؤكد لنا على أن المتحدث (المرسل) بات نواة هذه العملية، فهو يفكر ذهنياً قبل الكلام، وهو يرتب أفكاره، وهو يختار مفرداته، وهو يضعها في جمل، وهو يتحدث وفق الموقف القائم، وهو في حاجة إلى طرف ثانٍ للتفاعل معه ومشاركته في فهم رسالته. أما الرسالة اللغوية وما يسبقها من مقام أو موقف دعا كلاً من المتحدث والمتلقي إلى الاشتراك والتفاعل معاً، فهي خلاصة فكر هذا المتحدث. ثم تأتي الوسيلة التي يعبر بها المتحدث عن فكرته. كل هذه المقومات والمكونات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعملية التواصل هي وظائف تؤول في نهاية المطاف إلى دور اللغة في المجتمع، وأهميتها بالنسبة للفرد والجماعة، فهي أداة للتعبير والأفكار والأحاسيس التي تنتقل من المتحدث إلى المتلقي قائم على التفاعل والمشاركة بين طرفين، وهي كذلك أداة معرفية لا يمكن التغاضي عنها، إذ يسأل المتحدث بها عن الجوانب المعرفية التي لا يعرفها، حتى يتزود بها لسد النقص في معلوماته، وهي كذلك أداة لقياس درجة الاستجابة وإثارة أفكار المتلقي حين سماع رسالة المتحدث.

هدف التواصل اكتساب لغة أم تعلمها؟

قد يعيش المرء حياته كاملة دون أن يتعلم القراءة والكتابة، ولكن الأمر مختلف بالنسبة للغة، فبدونها لا يستطيع التفكير أو التعبير عن عواطفه ومشاعره وانفعالاته، كما لا يمكنه التواصل مع الآخرين...". و اللغة بهذا المفهوم لا تتعدى كونها صبغة اجتماعية تصطبغ بسلوك الفرد داخل مجتمعه وخارجه، هدفها الأسمى هو التواصل مع الآخر، يقول تمام حسان: "كلما ازداد توغل الفرد في عضويته للمجتمع اللغوي، لعبت اللغة دوراً متزايداً لا في حياته الاجتماعية فحسب، بل في سلوكه، وإحساسه، وتفكيره الشخصي، أما عضويته الفعالة في مجتمعه، فتعتمد مباشرة على قدرته على التواصل بزملائه، وقدرته على التواصل بدورها عامل أساسي في نموه باعتباره فرداً..."

هكذا نلاحظ أن اللغة كأداة للتواصل لا بد وأن تجتمع فيها مجموعة من العوامل الاجتماعية والنفسية والثقافية حتى يتفاعل الفرد مع مجتمعه يتفاعل معه، ويشاركه ، يكتسب منه ويكسبه. هذا الاكتساب اللغوي الذي تناوله كثير من المهتمين بمجال الدراسات اللغوية والتربوية قد تعددت مفاهيمه ومراحله، بدءاً بصرخة الطفل وانتهاءً بتعلم اللغات الأجنبية التي تهمننا في هذا البحث، حيث تبدو العلاقة وطيدة بين التواصل اللغوي وبين اكتساب لغة أجنبية جديدة، إلا أن هذا الاكتساب يتفاوت مفهومه بين كون تعلم هذه اللغة ثنائي اللغة موجهاً من قبل نظام دراسي محكم، أم من خلال نظام غير موجه تعنى به الدورات الدراسية؟ إضافة إلى ذلك إتقان العمالة الأجنبية للغة البلدات التي يعملون بها، ومدى نجاح هذه التجربة من عدمه.

وبناء على هذا، سعى كثير من الباحثين الأوروبيين والأمريكيين إلى وضع أطر تحدد الفروق بين الاكتساب والتعلم، حيث أفرزت هذه الجهود نظامين جاء بهما استيفان كراشن Krashen, E أستاذ تعليم اللغة في

جامعة كاليفورنيا في كتابه المعروف اكتساب اللغة الثانية وتعليمها
(second language acquisition and second language
learning): وذلك على النحو التالي:

الاكتساب: تكتسب اللغة الثانية عند كراشن Krashen إن كانت متشابهة مع اللغة الأم، حيث أثبتت الدراسات أن دراسي اللغة الإنجليزية كلغة ثانية على اختلاف لغاتهم، وقعوا في الأخطاء نفسها بغض النظر عن خلفياتهم اللغوية التي يمتلكونها.

وتلعب عدة عوامل دوراً كبيراً ومؤثراً في اكتساب اللغة، مثل العوامل الاجتماعية والعمر والجنس والعوامل الشخصية الأخرى كالذكاء والدوافع والاتجاهات. كما أن اللغة المكتسبة اللغة ليست وسيلة للتخاطب الخارجي فقط، بل هي النظام الأساسي الذي يستخدمه الإنسان في التفكير حيث إن لغة دوراً في صياغة التفكير، والمساهمة في التشكيل الثقافي والارتباط بالجنور، وتحقيق النقلة الثقافية المناسبة.

ولنا أن نقارن بين الدارس ثنائي اللغة وبين أحادي اللغة، حيث ستكون تكون نتائج الأول أفضل بشكل خاص في مهارات الاستماع والقراءة والكتابة بطبيعة الحال، حيث يصب جل اهتمامه على التواصل لا على النطق، ومن ثم الحاجة ملحة لوضع برامج تستجيب لحاجات المتعلمين وغاياتهم المتوخاة من التعلم.

التعلم: التعلم هو نتاج التعليم الرسمي، حيث يرتبط بمعرفة اللغة والوعي بها، كمعرفة قواعد اللغة الهدف على سبيل المثال. وينصح بتعلم اللغة الثانية في مرحلة متأخرة بعد أن يكون الفرد قد استوعب أساسيات لغته، وأتقن فعاليتها وتشبع بثقافته الوطنية، بحيث يمكن أن تكون كل هذه العوامل في صالح اللغتين

الأم والهدف، قد تكون دينية الغرض منها قراءة نص ديني، وقد تكون مهنية باعتبار اللغة أداة للتواصل الشفهي والكتابي في مجالات الإدارة والسياحة والدبلوماسية وغيرها من المجالات الأخرى، وقد تكون علمية وهي الأهم، حيث تخص الدارسين بما تقتضي من طاقات تكون القدرة التواصلية لديهم، وما تتطلبه هذه القدرة من احتكاك باللغة المتعلمة في محيط لغوي مناسب، هذا الاحتكاك الذي يولد اتصالاً فعالاً ومشاركاً يثبت القواعد والأنظمة المرتبطة بهذه اللغة، إذ لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا وضع المتعلم في محيط لغوي يشبه المحيط الطبيعي. واختيار المنهج التواصل في مجال تعلم اللغة الثانية هو أنجع المناهج وأكثر فعالية وتأثيراً، حيث يعتمد هذا المنهج إلى دفع المتعلم للتواصل مع اللغة الثانية في مقامات مختلفة، مفرداتية وقواعد نحوية، وإشعاره كذلك في هذه المرحلة بأنه عضو طبيعي في المحيط اللغوي الجديد، وتكيف عاداته السمعية والنطقية مع متطلبات اللغة الجديدة.

كما أن المنهج التواصل يحقق قدراً من التعلم بسرعة مدهشة، حيث سيجتهد المتعلم في أن يظهر قدرته على التواصل باللغة الهدف، ثم تأتي المرحلة الثانية التي هي استعمال القواعد واستثمار معطياتها اللغوية بعد أن أصبح متعوداً على إنتاجها وفهمها، ومن ثم يزول العبء عنه، و يقبل على تعلمها خاصة إذا كان حريصاً على صياغة كلامه بوضوح وبساطة.

هكذا تبدو لنا أن عملية الاكتساب تسبق بطبيعة الحال عملية التعلم ، لأن الاكتساب عملية فطرية تولد مع الطفل، وتنشأ معه، وتظل مستمرة معه، أما التعلم فهو عملية تعليمية نتاج مجهود يبذل لتقريب التعلم من الاكتساب، أما التواصل الذي يلي مرحلة التواصل فهو الأجدى في تعليم اللغات، لأنه مشاركة وتفاعل بين اثنين قوامها نقل مجموعة من الأفكار في قالب لغوي كما قلنا آنفاً.

مراجع البحث

- ١ رشدي أحمد طعيمة، تعليم اللغة اتصالياً بين المناهج والاستراتيجيات، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ٢٠٠٦م.
- ٢ أنس محمد قاسم، مقدمة في سيكولوجية اللغة، الطبعة الأولى، الإسكندرية ٢٠٠٠م.
- ٣ عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، الطبعة الأولى، الجزائر ٢٠٠٠م.
- ٤ شحدة فارح وآخرون، مقدمة في اللغويات المعاصرة، الطبعة الرابعة، الأردن ٢٠٠٨م.
- ٥ هازن الواعر، دراسات لسانية تطبيقية. دار طلاس للنشر. ط١. ١٩٨٩. دمشق.
- ٦ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الطبعة الرابعة، القاهرة ٢٠٠٤م.

٧ رمزي البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، الطبعة الأولى، بيروت
١٩٩٠م.

- 8- Anderson, M. John: Principles of dependency phonology, Cambridge University 2009.
- 9- Bloomfield, Leonard: Language, New York 1933
- 10- Sapir, Edward: Language, An introduction to study of speech, New York 1921
- 11- N. Chomsky: Syntactic structures, Mouton 1957
- 12- Savignon, Sandra: Communicative Competence: An Experiment in Foreign-Language Teaching. Philadelphia, 1972.
- 13- Wilkins, D: Some issues in communicative language